

النظرية النقدية والبحث عن دور جديد للفلسفة

Critical Theory and the Search for a New Role for Philosophy

الداباسة حامد أحمد^{1*}، دعاء خليل علي²

¹ الجامعة الأردنية، عمان، الأردن h.dababseh@ju.edu.jo

² الجامعة الأردنية، عمان، الأردن d.khalil@ju.edu.jo

تاريخ الإرسال: 2026/04/22 تاريخ القبول: 2026/06/15 تاريخ النشر: 2026/06/30

الملخص

استقلت العلوم الطبيعية عن الفلسفة في القرن السابع عشر، نتيجة تطورات كبرى في المناهج التجريبية في العلوم الطبيعية، نتج عنها ثورة صناعية اتضحت معالمها وآثارها في القرن التاسع عشر، وقد غيرت العلاقات بين المعرفة، والإنسان، والعلم، ونتائجه. وحاولت العلوم الإنسانية والاجتماعية تمثل مناهج العلوم الطبيعية في نهجها ونتائجها الموضوعية، ونتج عن ذلك أمران: الأول، هيمنة العقل الأنواري على الواقع، والثاني، إبعاد الفلسفة عن شؤون الحياة المختلفة وترك الهيمنة لمجريات الثورة الصناعية ومنتجاتها، ما أدى إلى تغييرات كبرى في مختلف جوانب الحياة، كان من نتائجه؛ الحرب العالمية الأولى. وسعى ثلة من المفكرين إلى فهم وتحليل ونقد كل ما يجري لإعادة تقييمه عبر مختلف العلوم الإنسانية، كان من ذلك إيجاد النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت التي تضمنت إعادة النظر في دور الفلسفة في هذا التغيير، ليستعيد الإنسان دوره النابع من الوعي والحرية. وتهدف هذه الدراسة إلى بيان موقع الفلسفة ودورها ومناهجها في النظرية النقدية تجاه الحداثة وما نتج عنها. وتحاول الإجابة على السؤال التالي: ما أبرز سمات الفلسفة التي تبتنها النظرية النقدية، وهل نجحت في توظيفها لتحقيق أهدافها المعلنة؟

الكلمات المفتاحية: الفلسفة؛ الحرية؛ النظرية النقدية؛ الحداثة؛ العقلانية؛ التشيي.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Advancements in experimental methods led to the natural sciences' separation from philosophy in the seventeenth century. These advancements led to objective results in the natural sciences, consequently contributing to the start of a significant industrial revolution whose characteristics and effects became evident in the nineteenth century, significantly altering social relations and prevailing thought. Likewise, the human and social sciences sought to adopt methods to reach objective results in fields involved in the human being, as well as to extend the impact and outcomes they have. This led to two things: first, the dominance of the Mind of Enlightenment in the different conditions of societies and European countries; and second, an effort to remove philosophy from the different affairs of life, leaving dominance to the course of the industrial revolution and its products. This has resulted in profound changes in many aspects of human life.

This transformation has led to the destruction of humans and was reflected in one of its outcomes, WW1. Which gave rise to calls to understand, analyze, and criticize everything that was happening through the various human sciences. Critical Theory emerged to reconsider the role of philosophy in this transformation, so that humans might recover a fundamental role grounded in awareness and freedom. Accordingly, this study aims to clarify the position of philosophy-its role and its methods-within Critical Theory in its stance toward modernity and the results it produced. It attempts to answer the following question: What are the most prominent features of the philosophy adopted by Critical Theory, and did it succeed in employing them to achieve its declared aims?

Key Words: Philosophy; Freedom; Critical Theory; Modernity; Rationality; Objectification.

مقدمة

شهدت أوروبا تغيرات جوهرية في القرن التاسع عشر على المستويات كافة، فقد تغيرت التجربة الإنسانية بكل مكوناتها: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وذلك بالتزامن مع الانهيار الكبير بالعقل وإفرازات الثورة العلمية التي نتج عنها الثورة الصناعية التي بدأت تحاصر الإنسان في مختلف جوانب حياته، بعد أن أصبح العقل وكل منتجاته يقود الحياة البشرية في مختلف المجالات دون رقابة أو مسؤولية، فحل الامتلاك محل الكينونة والوعي، كما يرى فروم وهو أحد رواد النظرية النقدية¹، ما أفقد الإنسان القدرة على وعي ذاته واختيار أفعاله المعبرة عن إنسانيته، بعد الانهيار الشديد بالأنساق الفلسفية التي هيمنت على القرنين السابع عشر والثامن عشر في العقلانية والتجريبية الحسية بل والنقدية الكانطية²، وأدت الهيمنة الكبرى للعلم وما نتج عنه من صناعة، وانغماس الوعي بالحالة المادية المهيمنة إلى مهاجمة الفلسفة واختفاء نخط الأنساق الفلسفية الكبرى التي سادت من قبل، فبدأت الحياة تتداخل وتتعدد ما أدى إلى فقدان الإنسان القدرة على التوجيه الواعي لمجريات حياته الإنسانية.

بدأ المفكرون بمختلف تياراتهم الوعي بهذه التحولات الكبرى التي هيمنت على الحياة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان من ذلك إنشاء مدرسة فرانكفورت بمنهجيتها النقدية³، وباستخدام كل الأنساق المعرفية السائدة لفهم ما يجري، والسعي إلى تصويب العلاقة بين الإنسان ومنجزاته التي هيمنت على مختلف مفاصل حياته، وذلك بداية عبر النسق الماركسي، لتقوم الفلسفات التي سبقت وأثرت بقوة في مسار الحياة بعامة.

وفي سبيل نجاح الهدف في السعي إلى إعادة الحياة إلى المسار الإنساني، فقد تبنت المدرسة النقدية مختلف الأنساق الفكرية وفي مقدمتها الفلسفة، في محاولة لإعادة توظيفها في الحياة وجعلها تياراً فكرياً متجدداً قادراً على التحليل والفهم والنقد والتقييم، لأجل عودة الإنسان إلى وضعه الصحيح من الحياة بعد أن استبعدته الثورة الصناعية بكل إفرازاتها عبر نسقها الرأسمالي الليبرالي، وجعلت منه "شيئاً" لا ذاتاً عاقلة قادرة على وعي ذاته وموقعه ودوره في الحياة.

ومن الضروري بيان ماهية النسق الفلسفي الذي اعتمدته النظرية النقدية لتحقيق هدفها، وما هي آليات العمل عبر هذا النسق الذي تبنته للوصول إلى هدفها الجوهرى المتمثل في تقويم المسار

الذي شوهته الرأسمالية بأنساقها الفكرية وسلوكاتها العملية التي قامت على تزييف الوعي الإنساني وتشجيع الذات الإنسانية.

سيتم عرض مفهوم النظرية النقدية والأسس الفلسفية التي قامت عليها، وتعريفهما لبيان العلاقة بينهما، وقد ظهرت النظرية النقدية في الربع الأول من القرن العشرين، أي في المرحلة التي بدأت الأنساق الفلسفية الكبرى تتراجع من الفضاء الفكري ويحل محلها المناهج العاملة على إعادة النظر في الأنساق الفلسفية القديمة ذاتها، بالإضافة إلى التغيرات الهائلة التي واكبت بداية القرن العشرين سياسيًا وفكريًا واجتماعيًا⁴.

وفي سبيل تحقيق هدفها؛ انفتحت النظرية النقدية على عدد كبير من المجالات والحقول المعرفية؛ كان من أبرزها الفلسفة لتحليل الواقع ونقده لإعادة بناء مشروع تنويري جديد يقع الإنسان في صميمه، وهذا يفرض نقد ما كان قد انحرف عن هذا المسار الإنساني بحجة خدمة الإنسان ذاته، لهذا تمثلت المدرسة في موقفها الفلسفي المنهج النقدي، المبني على الفهم والتحليل لكل البنى الفكرية وأسبابها ومنتجاتها خلال القرنين الماضيين، ومن الضروري تعريف النظرية ومكوناتها والمساهمين الأساسيين فيها، والدور الذي قامت به وهل نجحت فيما رامت إليه؟ وما مدى النجاح الذي حققته أو الفشل الذي منيت به، لتقوم الفلسفة بنقد التيارات الفكرية في القرن التاسع عشر وما قبله، وهي التي أدت إلى التغيرات الكبرى في التجربة الإنسانية⁵.

مرت النظرية النقدية بعدد من التغيرات الكبرى في فهمها وأدوارها نتيجة للتحويلات الفكرية والسياسية والاقتصادية التي حدثت بعد مرحلة النشأة، الأمر الذي انعكس على روادها وإعلانهم بعدم قدرتهم على تحقيق الأهداف التي قاموا بتبنيها في البداية. وتركز الدراسة على المرحلة الأولى لدور الفلسفة في مرحلة النشأة، رغم أن النظرية تطورت لاحقًا وقدمت أنماطًا جديدة لدورها المعلن والتي تمثلت في فلسفة التواصل وفلسفة الاعتراف والعدالة وفلسفة عدالة التبرير⁶، وهذا يحتاج لدراسة مستفيضة أخرى؛ ربما تؤسس هذه الدراسة على الأسباب التي قادت إلى تبني هذه الأهداف الجديدة وهل هي دليل على قوة النظرية أم ضعفها؟

إشكالية البحث

أدت التطورات التقنية وما رافقها من تغيرات معرفية وقيمية في العالم المعاصر إلى تغييرات جوهرية في العلاقات والقيم الإنسانية، ولذا سعى عدد من المفكرين إلى إنشاء مدرسة فرانكفورت وجوهرها النظرية النقدية لبيان سلبات هذه التغيرات، وتبحث الدراسة في دور الفلسفة في هذه التغيرات، وهلا مازال لها دور يمكن أن تقوم به، بعد المناداة بأنه لم يعد لها دور في الواقع المعاصر.

الهدف من البحث

يهدف البحث إلى تتبع وبيان المواقف المختلفة للمفكرين المنتمين للنظرية النقدية في مدرسة فرانكفورت في فهمهم للفلسفة والدور المتوقع لها؛ في إطار الصراع الفكري المحتدم من التيارات الفكرية المتنوعة التي تصارعت في أوروبا في نهاية القرنين التاسع عشر والعشرين، وما الدور المحتمل الذي يمكن أن تقوم به الفلسفة في الحفاظ على جوهر الإنسان كونه كائنًا واعيًا محكومًا بالحرية بعد تشيئته ومصادرة وعيه.

منهجية الدراسة

تبنت الدراسة المنهج التحليلي والمنهج التاريخي والمنهج النقدي في سبيل الوصول إلى إجابة على سؤالها الرئيس، وتحدد هذه المناهج أساسًا بوجود مشكلة أو قضية فلسفية تحتاج إلى بحث واستجلاء، وهي هنا الحديث عن مكانة الفلسفة ودورها في إطار التغيرات الكبرى التي عصفت بالعالم وأبعدت الإنسان عن مركز الاهتمام وغاية الوجود، وأضحى العقل ذاته أحد أسلحتها في تسليع الإنسان وتشيئته والتغول على حريته والسعي إلى استعباده. وهذا يستلزم تمييز المشكلة بصورة أكثر وضوحًا من جوانبها المختلفة، من حيث تقسيمها إلى أكبر عدد ممكن من المشكلات الجزئية حتى يسهل تناولها وفهمها ومعرفة العلاقات بينها وبين الإطار العام للفكرة عبر تطورها التاريخي وتغيراتها الحادثة، ومعرفة جوانب المساهمة وتطوراتها، وبيان مدى نجاح المدرسة والنظرية في تحقيق الإطار الفلسفي الذي سيتم عبره محاكمة التغيرات الحادثة في المجتمع الإنساني وخاصة الغربي، وما آلت إليه من تغييرات عصفت بالإنسان بعيدًا عن موقعه ودوره، وهل نجحت أم لا، عبر تقييم ونقد ما تم تقديمه.

1. النظرية النقدية والنقد الفلسفي

تميز القرنان السابع عشر والثامن عشر بكونهما قرنا الأنساق الفلسفية الكبرى: النسق العقلائي الذي بدأ بديكارت بصورة أساسية⁷، والنسق التجريبي الحسي، المتمثل أساسًا في المدرسة الإنجليزية، والذي بدأ مبكرًا مع فرانسيس بيكون وبلغ ذروته مع ديفيد هيوم، ثم النسق النقدي الكانطي الذي نقد النسقين العقلائي والتجريبي، وإن قبل بعضًا من طروحاتهما⁸. وقد كان هذا مؤثرًا على تغيرات كبرى بدأت أساسًا بالثورة العلمية التجريبية على الفلسفة والعلوم الاجتماعية وخاصة الميتافيزيقا⁹، وسعي هذه العلوم إلى الانفصال عن الفلسفة وتأسيسها مناهج خاصة بها أدت إلى نتائج تجريبية قادت إلى بدء الصناعة الآلية في الحياة الإنسانية، وبداية التعامل النفعي مع الطبيعة بديلاً عن فهمها، والذي قاد لاحقًا إلى هيمنة النزعة المادية وسيادتها على كل جوانب الحياة، والذي قاد إلى البدء التدريجي إلى استبعاد الإنسان والتعامل معه باعتباره "شيئًا" سواء في وعيه وعقله أو وجوده، وقد انعكس هذا على مجمل العلاقات الإنسانية التي تحولت إلى أدوات ومنافع وعلاقات أكثر من أن تكون أهدافًا ومنظومات قيمة تقود الحياة الإنسانية نحو أُنسنة حقيقية لمجمل مكونات هذه الحياة. والتي انتهت إلى انفجار العلاقات الإنسانية بصورتها المادية في حرب كبرى استبعدت الإنسان من دائرة الاهتمام الأساسية من كونه هدفًا إلى كونه وسيلة من الوسائل في مشروع رأسمالي مهيمن، تبينت نتائجه في ألمانيا على سبيل الخصوص عندما تعرض الشعب الألماني بعد الحرب العالمية الأولى إلى تجريده من مقومات حياته الأساسية وتحمله نتائج الحرب، إذ تفككت العلاقات الإنسانية وحلت المنفعة والمكاسب المادية محل الإنسان ذاته¹⁰.

وقد استدعت هذه التغيرات الكبرى في الحياة الإنسانية إعادة النظر في مسارات ومناهج الفكر ونتائجه، خاصة بعد أن قام بعض علماء الاجتماع بالسعي إلى موضوعة العلوم الاجتماعية على غرار العلوم الطبيعية، والقول بأن الفلسفة لم يعد لها دور في الحياة¹¹. الأمر الذي دفع إلى إعادة النظر في مجمل الواقع القائم، والبحث في كيفية فهم ما يجري، وبيان النافع من الضار والصحيح من الزائف، ولا يتم ذلك إلا عبر عملية منهجية من النقد تقودها الفلسفة خاصة بعد التداخل الكبير للعلوم الطبيعية وهيمنتها، وانتشار الهيمنة السياسية المتطرفة في العديد من دول أوروبا. كان من نتائجها ظهور الوضعية التحليلية والفيثومولوجيا والنظرية النقدية في بداية القرن العشرين.

1-1 نظرة تمهيدية في وظيفة الفلسفة نقدياً

نشأت النظرية النقدية في سياق اعتراضها على الفلسفة الوضعية التي ركزت على الوقائع المادية ومنتجاتها وأهملت الإنسان، ما أدى إلى تشيئته وتحويله إلى جزء من واقع مادي فقد بُعده الإنساني. وقد شكّل تأسيس معهد فرانكفورت للدراسات الاجتماعية عام 1923 تعبيراً عن وعي مبكر بأهمية العلوم الاجتماعية والإنسانية في إعادة بناء الوعي الإنساني وحماية الحرية التي بدأت تتآكل داخل المجتمعات الحديثة¹². وسعى مفكرو المعهد، وهم من خلفيات معرفية متنوعة، إلى تحليل المجتمع الصناعي، وخاصة المجتمع الألماني، بهدف كشف آليات اغتراب الإنسان والعمل على تحويله إلى مجتمع إنساني حر.

تُعَدّ النظرية النقدية حالة إبستمولوجية تهدف إلى إنتاج معرفة نقدية تُقدّم للناس بوصفها دليلاً للفهم والفعل، بما يمكنهم من إدراك جوهر ذواتهم الإنسانية ومصالحهم الحقيقية، خاصة في ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية والحرية، والتحرر من الهيمنة الأيديولوجية الرسمية والفكرية التي ترى الإنسان وسيلة لا غاية. وانطلقت هذه النظرية من تحليل الواقع كما هو، واستقصاء تناقضاته الديالكتيكية، عبر الفهم الماركسي للجدل والاغتراب كما طوّره جورج لوكاش¹³.

يرتبط الاغتراب، وفق التصور الماركسي، بانقلاب العلاقة بين الإنسان ونتاج عمله؛ إذ تصبح البنى الاجتماعية والاقتصادية التي أنشأها البشر قوى مهيمنة عليهم، فيغدو الإنسان "دمية للنظم الاجتماعية التي صنعها بيديه"¹⁴. ويتجلى ذلك بوضوح في المجتمع الرأسمالي، حيث يفقد الإنسان سيطرته على العمل والقرار، ويقع في أشكال متعددة من الختمية النفسية والاجتماعية والعقلية، ما يؤدي إلى تصدع المجتمع وانفصال الذات عن واقعها ووعيها¹⁵.

ومع ذلك، تؤكد النظرية النقدية وجود جوهر إنساني أصيل يتمثل في قدرة البشر على العمل الجماعي الواعي لتحويل بيئتهم بما ينسجم مع إنسانيتهم. ويُعد هذا الجوهر معياراً عقلائياً لنقد المجتمعات التي تمرق العلاقات الإنسانية وتمنع التعاون وتُصادر حرية الاختيار. لذا دعا هوركهايمر وأدورنو، ولاحقاً ماركوز، إلى إخضاع هذه المجتمعات لنقد دائم، ورفضوا أشكال السيطرة التي نزعت إنسانية الإنسان، خاصة تلك التي مارسها الحداثة عبر العقل الأداتي¹⁶.

لقد تحوّل مشروع التنوير، الذي كان يهدف إلى "تحرير الإنسان من التعصب والخوف ومن السلطة المطلقة"¹⁷، إلى نقيضه؛ إذ انقلب العقل إلى أداة هيمنة وسيطرة، وتحولت العقلانية

الإنسانية إلى عقلانية أداتية تهتم بالوسائل والكم والمنافع على حساب القيم والغايات والإنسان. وأدى هذا التحول إلى انتشار الاغتراب، وتشويه الإنسان، وتحالف العقل والسلطة والنظام في محاصرة الفرد وحرية.

تتخذ النظرية النقدية من النقد قاعدة لها، وترفض كل نسق شمولي أو أيديولوجيا مهيمنة، وتسعى إلى أن تعود الفلسفة إلى وظيفتها التحررية بوصفها ممارسة لا سلطوية تهدف إلى خلق الوعي بالذات. وهي لا تقدم مذهباً مغلقاً، بل تجعل من الفلسفة مجالاً للتفكير السلي ونقد العقل ذاته، باعتبار أن تحرير الإنسان يمر عبر "نقد العقل بواسطة العقل"¹⁸، في مواجهة العقلانية التقنية التي حولت التقدم إلى تراجع إنساني، وكرست ما سماه ماركوز "الطابع العقلاني للعقلانية"¹⁹.

1-2 معنى النقد

تبنت النظرية النقد منهجاً أساسياً، وهو يعني الحكم، بمعنى الكشف عن الأخطاء كما هو المعنى الشائع، كما يعني الفحص الدقيق غير المتحيز لمعنى شيء ولمضمونه وقيمه، وتعني من الناحية الفكرية عموماً، النقد المستند إلى أسس منهجية واضحة المعالم لبيان حقيقة الشيء، وبذا فالنقد يعني فاعلية نظرية وأداة إجرائية رئيسية في النظر والتفكير تستهدف مسألة الطرق التي تتكون بها القناعات بإظهار زيفها ونقصها وتجريحها²⁰.

يتميز القرن الثامن عشر بأنه قرن النقد، وقد ارتبط النقد بحركة دينية وفلسفية شاملة، بدأت في بريطانيا وفرنسا، من خلال تحطيم الشكل التقليدي للمعرفة الفلسفية عبر الشك المنهجي الديكارتي²¹ وخاصة ذاك المتمثل في النسق الميتافيزيقي المتوارث من اليونان والتي كانت تسيطر عليه الكنيسة وتفرضه بسلطانها، وكان الشعاع المرفوع في البداية تصويب الأخطاء، ثم تحول إلى محاربة اللاهوت، ونادت بإعطاء العقل الحرية الكاملة واخضاع كل شيء لهذا العقل²².

وقد سبق النظرية النقدية التي هي الوظيفة التي قامت بها مدرسة فرانكفورت، عدد من الفلاسفة الذين أثروا فيها، أسوة بما يميز الفلسفة في القرن العشرين، ومن أهم الفلاسفة الذين أثروا في النظرية النقدية، إيمانويل كانط الذي اهتم اهتماماً بالغاً بالنقد، إذ كان مشروعه كله قائم على النقد بدليل عناوين كتبه الرئيسية الثلاث²³، وكان يرى أن الفلسفة بحاجة شديدة إلى علم جديد يحدد إمكانية ومبادئ ونطاق حدود المعرفة الموثوق بها، وقيامها بأداء دور في الأستمولوجيا والحياة الإنسانية، وبهذا فالنقد الكانطي يرى أن كل المعارف لا بد لها أن تخضع لنوع من الفحص والمعاينة

والتدقيق للوصول إلى الحقيقة. وقد استطاع كانط أن يدخل النقد بطريقة منهجية في الفلسفة مستهدفًا تطوير نظرية المعرفة في الجوهر، وفلسفته النقدية لا تقرر شيئًا دون أن تضعه في ميزان النقد، والنتيجة أنه أطاح بكل الاتجاهات الميتافيزيقية عبر التفريق بين عالمين منفصلين يشهد الأول على علاقة كبرى مع الحواس التي تزود العقل بمعطياته ليقوم من خلال مقولاته الفطرية بإيجاد المعرفة الموثوقة، بعيدًا على عالم الشيء في ذاته أو ما لا يقع تحت هيمنة الحواس ومعرفتها وإمكاناتها²⁴.

1-2-1 النقد عند هيجل

يرى هيجل أن الجدل هو مبدأ كل حركة وحياة، ويمتد ليشمل الأشياء الطبيعية والإنسانية، واستطاع لذلك نقل المذهب المثالي من مرحلة الاستسلام للأمر الواقع والدفاع إلى مرحلة النقد الثوري والقيادة. والجدل لديه هو رفض وإنكار لما هو قائم بالفعل. وما يقال عن النقد يقال عن السلب، لذا كانت فلسفة هيجل فلسفة سالبة، لأنه يرى أن العلاقة بين الفرد والمجتمع هي علاقة تؤدي إلى حالة من المعرفة، وهو في جوهره مشروع نقدي، تأثر فيما بعد بالتصور الجمعي لوظيفة الدولة التي أضحت في مكانة مهيمنة وتستوعب كل ما عداها²⁵.

1-2-2 النقد عند ماركس

تناول ماركس النقد من خلال أمرين:

الأول: محاولته ربط النقد النظري بالنشاط العملي في تصوره لاختلال العلاقة المادية بين الفرد المهيمن والمجموع التابع.

الثاني: النقد هو المضمون الجديد الذي أعطاه لمفهوم الأيديولوجيا وربطه بالمجتمع والتفاوت الطبقي.

وقد حدد هربرت ماركوز النقد عند ماركس في ثلاثة مستويات:

الأول: النقد المطلق أو النقد المثالي - النقد النقدي.

الثاني: النقد بوصفه نشاطًا تنويريًا، ويشيد هنا بالنشاط التنويري الذي قامت به الاشتراكية تجاه الطبقة العاملة لإعادة الحرية لها.

الثالث: النقد كممارسة ثورية، وهي التي تتكفل به الطبقة الثورية - أو البروليتاريا.

ولهذا تتحدد ملامح النقد الماركسي في: ارتباط النقد بالممارسة وخاصة الثورية. ويعتبر النقد وسيلة وليس غاية، وهو نقد يناضل من أجل المستقبل، لأنه نقد مرتبط بطبقة فاعلة وهي البروليتاريا²⁶.

2. أصول النظرية النقدية التاريخية والعقلية

1. تشكل النظرية النقدية استمرارًا ومواصلة للتفكير الكبير التي ابتدأتها الفلسفة الألمانية مع كانط، ونقد صريح للثقافة البرجوازية التي بدأت تتجذر في المجتمعات الأوروبية في القرن التاسع عشر، والتي بدأت مع الفلسفة الهيغلية بصورة واضحة حتى عبرت عن تقديمها الدولة على الفرد.

2. اتخذ أصحاب النظرية النقدية من الفلسفة الهيغلية بصورة أساسية محور نقدهم لكل فلسفة؛ كون هذه الفلسفة سعت إلى استبعاد الفرد من الفضاء العام وإحلال الدولة بكل مكوناتها مكانه²⁷.

2-1 القضايا الرئيسية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت

1. النظرية والممارسة: النظرية النقدية هي مجموعة القضايا التي تشكل إطارًا نظريًا لنقد النظام الاجتماعي القائم ومحاولة الكشف عن تناقضاته، بحثًا عن نظام اجتماعي جديد تنعدم فيه هذه التناقضات. وسعت إلى الكشف عن مواطن التناقض وعدم الاستقرار في النسق الاجتماعي السائد والمهيمن، وتطوير هذه المواطن، بحيث تؤدي دورًا مهمًا في النسق الذي أصبح يعاني من التناقض بهدف خلق تكامل جديد يتسق مع المرحلة التي تمر بها المجتمعات الأوروبية، وتحولت النظرية فيما بعد مع هابرماس الذي انتقدها إلى الاهتمام بالممارسة أكثر من الجانب النظري الذي كانت تعانيه خلال الجيل الأول للنظرية²⁸.

2. مقولة التشيؤ والاعتراب: وهي أن البشر مغتربون في إمكاناتهم وماهياتهم ووعيهم، فالمجتمع الرأسمالي يكشف عن اغتراب الإنسان وتشيعه في ظواهر عديدة ومتنوعة، وهذا التشيؤ والاعتراب تظهر في السلطة والنظم البيروقراطية وأساليب القمع الإداري. ويظهر الاعتراب في عملية توحيد الحاجات الإنسانية وتقعيد أنماط السلوك ونفي الحرية، ويرى لوكاتش أن التشيؤ هو تحول الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة واكتسابها صفات غامضة غير إنسانية²⁹.

3. العقل الأداتي أو العقلانية التقنية: إن هذا العقل وخاصة عند الجيل الأول الذي ابتداءً النقد؛ هوركهايمر وأدورنو وماركوز، عبارة عن منطق للتفكير وأسلوب لرؤية العالم بصورة مطلقة، وأسلوب لرؤية المعرفة النظرية، حيث يهتم بالأغراض العملية ويفصل الواقعة عن القيمة، وأصبح يحكم العلوم الطبيعية والإنسانية سواء بسواء، دون بيان الحدود الإنسانية عن الحدود الطبيعية³⁰.

في حين يرى هابرماس أن العقل الأداتي عبارة عن استراتيجية للاختزال والنظرة التماثلية للواقع، وعدم اهتمامه بالخصوصيات، وهو ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءاً في جوهره يشبه الأجزاء المادية، والعلاقة بين الإنسان والعقل الأداتي علاقة كميّة. ومن خلال هذه السمات للعقل الأداتي فقد أصبح الإنسان عاجزاً عن إدراك العمليات الاجتماعية والسياسية والتاريخية في سياقها الشامل، وعاجزاً عن تجاوز الحاضر لمعرفة الماضي واستشراف المستقبل. ولهذا يسقط العقل الأداتي في انعدام الزمن والتاريخ، ويصبح بالتالي كما يقول هابرماس: "قادراً على شيء واحد فقط هو قبول الأمر الواقع والتكيف مع الوقائع والأحداث القائمة"³¹.

4. المعرفة والمصلحة: وهذه من مقولات هابرماس، الذي يحدد ثلاثة أنماط من العلوم أو أساليب التفكير وهي:

- العلوم التجريبية والتحليلية، وهي مصلحة معرفية وتقنية.
- العلوم التاريخية والتفسيرية - الهيرمينوطيقية. وهي مصلحة معرفية علمية.
- علوم العقل والسلوك المنهجية، وهي تتجه إلى تحرير الإنسان من القهر بأنواعه عن طريق التأمل الذاتي للمستقبل³².

ويواجه هذه الأنماط ثلاث مصالح معرفية، والتي تتعلق في كون تطوير المعرفة مرتبط بغرض ما وليس عشوائياً، وتحقيق الغرض المنشود هو أساس مصلحة البشر من تلك المعرفة، وهذه المصالح غرضية ذات نفع تتعلق بمصالح مشتركة بين البشر وليست حكراً على نخبة بعينها، وتتضح هذه المصلحة المعرفية في تعزيز وسائل التواصل الإنسانية وفي مقدمتها اللغة، وفي العمل، ويؤدي العمل إلى ظهور المصلحة التقنية التي لا بد وأن يتم أنسنتها لتؤدي غرضها الحقيقي في أن تكون مصلحة الناس كمجموع ساعٍ إلى السيطرة على العمليات الطبيعية وليس لمصلحة فئة بعينها، فتطور الكهرباء هي مصلحة الجميع حين ينتفعون منها³³. وتقوم اللغة بدور حيوي في عملية تحويل البشر

ليبتهم لأهميتها التواصلية، وهو المؤدي إلى المصلحة العملية، التي تقود إلى ظهور العلوم التأويلية التي تستند إلى التفاعل البشري، أي كيفية تأويل أفعالنا تجاه بعضنا بعضاً، وفهمنا لبعضنا، والطرائق التي نتفاعل بها في إطار تنظيماتنا الاجتماعية وقيمنا الممارسة. كما أن المصلحة العملية تقود إلى مصلحة جوهرية تهتم بها الفلسفة وهي مصلحة الاعتناق والتحرر، وهي مرتبطة باللغة، لأنها تسعى إلى تخلص التفاعل من كل عناصر التشويه، وهذه تقود إلى ظهور العلوم النقدية التي تسلم بقدرة البشر على التفكير وعلى الوعي بصورة ذاتية بما يقوم به من عمل، لأن "غاية العلوم النقدية القائمة على مصلحة التحرر هي الكشف عن التشويه القائم على التفاعل والتواصل وإصلاحه"³⁴.

2-2 النظرية النقدية والفلسفة الألمانية

نشأت النظرية النقدية في المجتمع الألماني لأنها عاينت التناقضات التي حدثت بين الفلسفة الألمانية بمثلثاتها وبين الواقع التجريبي الصناعي وآثاره في الواقع الاجتماعي الإنساني:

● نقد الاتجاه الوضعي ويتبدى في:

1. أن الوضعية تعتبر طريق قاصر، فلا تستطيع من خلاله فهم الحياة الاجتماعية بصورة صحيحة.

2. بيان الارتباط بين الاتجاه الوضعي والسياسي المحافظ وما هو قائم. والوضعية كما يراها أصحاب النظرية النقدية تهتم بما هو موجود فقط، ولا تعترض أي سبيل راديكالي للنظام الاجتماعي القائم.

3. يظهر من خلال فكرة التسلط التكنوقراطي³⁵.

● التحليل النقدي للفاشية، وينطلق نقدهم للفاشية من الصلة الوثيقة بين النظام الرأسمالي والفاشية³⁶.

● نقد؛ حيث ترى المدرسة أن السيطرة ذات ثلاثة جوانب:

الأول: السيطرة على الواقع الطبيعي والبيئة الفيزيائية المادية.

الثاني: سيطرة الإنسان على الإنسان الآخر.

الثالث: إخضاع البيئة البشرية³⁷.

وهو ما أدى إلى اختلالات كبرى في الواقع الإنساني؛ أدى إلى إفراز نتائج كبرى أودت بإنسانية الإنسان ذاته عبر حروب كبرى.

3. الأسس الفلسفية للنظرية النقدية

تتميز النظرية النقدية بصورة عامة بالتنوع وعدم الاتساق المحكم في نسق فكري واحد متمثل كالمدارس الفلسفية التي ظهرت بقوة في القرن السابع عشر؛ كالعقلانية في القارة الأوروبية والتجريبية الحسية في بريطانيا، سواء فيما يتعلق بالمنهجية أو الأسس الفلسفية أو الاهتمامات الخاصة بالنظرية أو بكل مفكر من منتسبيها، فقد كانت متاحة لكل الاتجاهات الفكرية في المعارف الإنسانية المتنوعة، وبالتالي التساؤل القائم هل تشكل النظرية النقدية نظرية فلسفية حقيقية، وهل هي مذهب فلسفي أم تيار فكري ذي أسس علمية اجتماعية، حاول منتسبوه تشكيل نسق فلسفي له منهجيته ومفاهيمه وأهدافه حسب المرحلة التي انبثقت فيها النظرية.

لقد انشغل المفكرون والفلاسفة الذين انتسبوا للنظرية أو لمدرسة فرانكفورت عامة؛ بعدد من المسائل الفلسفية وبعض الاهتمامات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية والقضايا المهيمنة أو المستجدة في بداية القرن العشرين من أبرزها: المسائل المتعلقة بالعقل والحادثة والفرد والسيطرة والعمل والديمقراطية والديكتاتورية، والحرية والعقلانية التقنية، والقمع وغيرها من القضايا التي فرضت ذاتها على الساحة الفكرية والسياسية الأوروبية عامة، وألمانيا خاصة؛ أي المجتمعات الصناعية المتقدمة³⁸.

3-1 أهم القضايا الفلسفية التي شغلت ممثلي النظرية النقدية

3-1-1 أسئلة النظرية النقدية

رغم الاختلاف في النشأة والتنوع في الطرح والظروف التي طرأت على النظرية وأصحابها في بداية النشأة ما أعطاهما خصوصية ما، فإن أغلب الباحثين والمفكرين فيها الذين يحسبون على النظرية تجمعهم "نواة نظرية" عمل أسسها الجيل الأول المتمثل في هورקהايمر وأدورنو من جهة ثم ماركوز من جهة ثانية على تأسيسها وتكوين عناصرها. وخلال مسيرتها التطورية منذ النشأة مرت بثلاث محطات أساسية: المحطة الأولى والتي تمثلت في حوارات والتر بنيامين وأدورنو وأواخر عام 1929، والمحطة الثانية عام 1937 حين صدر كتاب هورקהايمر النظرية التقليدية والنظرية النقدية،

وكتاب الفلسفة والنظرية النقدية لماركوز، والمحنة الثالثة، التي تميزت باللقاء والتعاون الفكري بين هوركهايمر وأدورنو، ما يعني أن هؤلاء المفكرين بالإضافة إلى هربرت ماركوز هم مؤسسو النواة النظرية التي أسست لفكرة النظرية النقدية في المرحلة الأولى، وقد انضم إليهم عدد آخر من المفكرين بعد مرحلة النشأة أهمهم إريك فروم³⁹.

لقد تكونت النظرية النقدية في الأساس من خلال اهتمام مشترك لعدد من الأفراد الذين تجمعهم وجهة نظر نقدية تجاه المجتمع القائم، ومن خلال خلفيات أكاديمية متنوعة، ويبدو أن هناك عاملين أثرا بقوة في هذا التوجه هما: الأوضاع الألمانية الداخلية المتردية على الصعد كافة بعد الحرب العالمية الأولى، وما تبع ذلك من معاهدات دمرت الواقعين الاقتصادي والاجتماعي والنفسي في ألمانيا. وثانيهما الفلسفة الألمانية منذ كانط وحتى نيتشه، فقد جعلت من النقد مكوناً أساسياً للنظر الفلسفي، والتساؤل من ناحية فلسفية: هل النظرية النقدية امتداداً للتقاليد الفلسفية الألمانية أم أن لها خصوصياتها وحولاتها المغايرة لها. لا شك أن الميراث الفلسفي الألماني السائد كان حاضراً في تفكير أصحاب النظرية النقدية بحكم الواقع الثقافي السائد وبحكم طبيعة الفلسفة ومنهجها وأهدافها، ولأن النقد موجه في الأساس لما هو موجود، وما هو موجود أحد نتائج الفكر الفلسفي الألماني، وهنا نرى أن العلاقة بين مفكري النظرية والفلسفة الألمانية مزدوجة، فهي مصدر من مصادريهم، وفي الوقت نفسه هدفاً نقدياً من أهدافهم. وهذا أدى بهم إلى إيجاد المنهجية التي تجعل النقد أداة لمقاومة الاستقطاب بكل أنواعه، وترك لهم مساحة للتحرك دون التورط في الانتماء السياسي المباشر أو الخضوع للأدلة التي تحصر فكرهم أو توجه نمط سؤالهم. والواقع يجب محاكمته اعتماداً على البعد النقدي للعقل، دون النظر لهذا العقل باعتباره متعالياً ومفارقاً للواقع، ولذلك يرفض مفكرو النظرية التفريق بين النقد والنظرية بأي صورة من الصور⁴⁰.

أما الأسلوب الذي اعتمده مفكرو النظرية في التفكير والنقد ورفضوا أي انتماء سياسي أو أيديولوجي وجعلوا النقد جوهر تفكيرهم، فيتبدى في مسألة التغيير، وخاصة لدى الجيل الأول للنظرية، منطلقين من رؤية غير ماركسية ابتداء ترى أن التغيير نتاج دينامية الصراع الطبقي، بل يرونه من منطلق تفكير الإنسانية في نفسها اعتماداً على شكل جديد من النظرية الاجتماعية. ومن هنا يرون أن تداخل الاختصاصات شرط ضروري من شروط النظر الفلسفي، وأن على الفلسفة أن تدمج اجتهادات الاقتصاديين والمؤرخين وعلماء النفس وغيرهم في صياغة أسئلتها

والبحث عن الإجابات. ولهذا فقد استرشد فلاسفة النظرية النقدية بنتائج العديد من الحقول المعرفية واستلهموا أنماطاً تأملية متنوعة⁴¹.

وقد تعاملوا مع الفلسفة وتصوروا أهميتها في المرحلة الحالية، عبر مفهوم العقل والنقد والأنوار لديهم، ونظروا للفرد في تفاعله مع الثقافة المحدثه وتعامله مع الدولة المجسدة للعقلانية التقنية التي شيئت الإنسان وصادرت حريته؟ فقد نظروا للفلسفة باعتبارها نتاج من نتاجات العقل الذي ينبغي أن يكون له دور الرقيب على ما يجري في المجتمع، وأن تكون وسيلة من وسائل مقابلة الهيمنة التي يقودها العقل الأنواري الذي تهاهى مع الوضعية والثورة الصناعية بكل منتجاتها وإفرازاتها التي شيئت الإنسان⁴².

3-1-2 الفلسفة والنقد

التساؤلات المطروحة على الفلسفة حديثاً تغيرت عما كان مطروحاً في الماضي، فالتساؤل هل الفلسفة تشكل معرفة؟ وما طبيعة هذه المعرفة، وهل هناك طريقة لتحليل هذه المعرفة، وما الفرق بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية، وما نوع العلاقة بين التفكير الفلسفي والعلوم التجريبية؟

من المشكلات التي تواجه الفلسفة في المرحلة الحالية أن الحقول المعرفية أصبح لها موضوعات خاصة بها، فالعلوم التجريبية والإنسانية لها موضوعاتها، في حين أن الفلسفة ليس لها موضوع يعرف بها، ولم يعد مفهوم التعميم المتعلق بالموضوع الفلسفي يصمد أمام الملاحظة في هذا التوجه الجديد، القائم على التساؤل الفلسفي عن الموضوعات، وهل للفلسفة عدا شرط السؤال مقاييس أخرى تنفرد بها، وهل بقيت الفلسفة حالياً رهينة الذات ومسألة الوعي، أم أنها بفضل مختلف الانفتاحات المعرفية توظف المفهوم وأشياء العالم المعيش لتكون جزءاً من الإحالة الإنسانية بكل تجلياتها.

لا تستطيع الفلسفة أن تدعي أن لها مثل هذه المقاربة، فلا تستطيع تفسير الوقائع المحددة اعتماداً على نماذج صورية، ولكنها تستطيع تنظيم معاني هذه الوقائع داخل نظام كلي، إنها ليست بعلم لأنه ليس لها موضوع محدد، وما دامت الفلسفة ابنة زمانها كما يرى هيجل، وما يميز فلسفة عن أخرى هو نخط سؤالها وقدرتها على إبداع المفاهيم، أو الإبداع في استعمالها.

إذا كانت الفلسفة قادرة على التساؤل عن مكونات الفعل ومنطق التاريخ، وتستفيد وتتفاعل مع كل نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية، وإذا كانت قادرة على إنتاج أو استعمال مفاهيم في علاقتها بالواقع واللحظة المعيشة، وتحتاج من أجل الإنتاج أو الاستعمال إلى نوع من الانسجام أو النسقية في برهنتها، فإنها لا يمكن أن تنتج نصًا فلسفيًا كليًا بدون الوقوع في الانغلاق النسقي، ولذا فإن أي فلسفة تعاند وتقاوم النسق على الاستيعاب والاحتواء تكون فلسفة متعددة المستويات تتخذ من النقد والسلب أفقًا جوهريًا للتفكير وتنتج نصًا جمعياً متعدد الموضوعات والإحالات لا يستقر على حقيقة أو مرجع مطلق يمكن الركون إليه أو الاعتماد على نتائجه⁴³.

وتعرف من خلال مطابقتها للعرض الواضح الذي تقدر على قوله. ولذا فهي ليست أداة أو تصميمًا هندسيًا بقدر ما تكشف عن سبيل التقدم الذي ترسمه الضرورات المنطقية والواقعية، ليس هناك طريق نحو التعريف، لأن الفلسفة عبارة عن مجهود واعٍ لتنسيق كلي لمعارفنا وأفكارنا داخل بنية لغوية يمكن تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية. ومن هنا جاء النقد الموجه للميتافيزيقا، لأنها تدعي إدراك الوجود والتفكير في الكليات واكتشاف معنى العالم بمعزل عن الإنسان الذي يفترض منها في الأساس أن تكون أداة لفهم الإنسان واحتياجاته⁴⁴.

فالفلسفة تستلهم العلوم الأخرى والاستفادة من التعبيرات الجمالية المختلفة؛ يلزمها في الوقت ذاته نقد كل نزوع ميتافيزيقي يفصل الفكر عن سياقه، وينتزع الكائن من عالمه المعيش. ولا يقتصر نقد الميتافيزيقا على الفلسفة، بل إن العلم ذاته نقد للميتافيزيقا. ويرى هيربرت ماركوز أن النشاط الفلسفي هو النشاط الإنساني الذي تتكون فيه الفلسفة، لأنه بالمعنى الجدي للكلمة نمط من الوجود الإنساني، باعتبار أن هذا الوجود في كل أنماطه يوضع في زاوية سؤال ومعناه. فالفلسفة ليست مجرد تصورات خيالية أو أوهام إنما تشكل قوة تاريخية حقيقية كما يراها ماركوز. ولا يؤثر فيها طابعها الأيديولوجي أو ينزع عنها معناها المتمثل في كونها عاملاً تاريخياً، إنها تعبير عن موقف أساسي إزاء ما هو كائن وموجود⁴⁵.

إن مناهضة الميتافيزيقا واقتران النشاط الإنساني بالتفلسف والانخراط في الحركة التاريخية واتخاذ موقف نقدي إزاء العالم؛ قد أدى بمفكري النظرية النقدية إلى الربط بين النظر والعمل وبين الفكر والتاريخ. وفي هذا الطرح لا يوجد شبه مع الطروحات الماركسية، رغم أنها أخذت بعض طروحاتها

منها في البداية، ولكنها قطعت تعاليمها في الوقت الذي تبين لها أن للماركسية نظامًا شموليًا يمكنه أن يحد من الحرية ويخلق البعد النقدي⁴⁶.

لم ينظر مفكرو النظرية النقدية إلى الفلسفة في علاقتها بمصير طبقة اجتماعية واحدة، بل أكدوا على دور الفرد في ممارسة الفلسفة، لأن الفرد العيني هو الذي يعطي الفلسفة معناها، دون أن تنحصر دلالة الفلسفة فيما هو فردي. وما دامت النظرية النقدية تتخذ من النقد قاعدة جوهرية لها؛ فإنها تتبرم من كل إرادة كلياوية، ومن كل نزعة نسقية مغلقة، وهي تدخل في صراع مع المثالية الألمانية سواء الكانطية أو الهيجلية لأنها تستلهم نهجًا جدليًا مفتوحًا من منطلق مادي، رغم أن بعض مفكري النظرية حاولوا التوفيق بين الفلسفة الكانطية والمادية الجدلية الهيجلية في بعدهما المتعالي كما يقول ماركوز. وقد مارست النظرية النقدية نوعًا من الانفصال النظري مع بنوية العلم التقليدي إبستمولوجيًا، ومع خلفيات ومرامي المثالية الألمانية فلسفيًا⁴⁷، ومارست انفتاحًا إزاء كل ما يريد أن يكون مستقلاً ومكتفياً بذاته من الناحية النظرية، ولذلك لا تفصل النظرية النقدية بين السوسيولوجيا والعلوم الاجتماعية عامة والفلسفة؛ لدرجة أنها بدت وكأنها تماهت معها أو انبثقت منها، وأضحى البعض يمارس الفلسفة على طريقة السوسيولوجيا، ويكتب في السوسيولوجيا بالأسلوب الفلسفي، وبدا وكأنهم كسروا حدود الفلسفة كما عهدوها. ومن هنا كان السجال مريزًا مع المنهج الوضعي، ما صبغ بعض آرائهم بهذه الردود، ولم يقتصر الاختلاف بين الوضعيين وأصحاب النظرية النقدية على مسألة حدود المجالات المعرفية أو على موقع العلم في المجتمع الحديث، وإنما كانت المواجهة تعكس الاختلاف الجوهرية في النظر إلى الواقع والمجتمع والحداثة، وفهم منطق العلوم الاجتماعية والبحث التجريبي وبالتالي تناقضًا واضحًا في النظر إلى الفلسفة⁴⁸.

إن الفلسفة عند أصحاب النظرية النقدية لا تنفصل عن أسئلة العلوم الإنسانية بصورة عامة، لأن الفلسفة بحكم كونها نقدية تسعى إلى صياغة نظرية في المجتمع، ولذا فهي تتفاعل مع نتائج العلوم الاجتماعية دون التسليم بكامل نتائجها، لأن النظرية النقدية تطعن في مصداقية السوسيولوجيا المسيطرة؛ لأنها عاجزة عن تقديم تصور كلي لا يغرق في الشروح التجريبية أو المنطقية - الاستنتاجية كما رآها دوركايم⁴⁹ وأنصار الوضعية التجريبية في القرن التاسع عشر.

ويرى أدورنو أن المجتمع كوحدة كلية لا يمكن أن يفهم إلا من خلال نقيضه المطلق المتمثل في الفرد، ويتحدد الفرد بوساطة الكلية التي تخترق أعماقه، ولهذا تعجز الفلسفة الوضعية عن إدراك عناصر التوتر التي تجمع الفرد بالمجتمع في الزمن الحديث، إن القادر على ذلك وحده هو فلسفة سلبية لأنها تولدت من تجربة فشل الثقافات الحديثة وانزلاق العقل إلى تهميش بشع للإنسان⁵⁰.

لم تتوقف النظرية النقدية في سياق صياغتها لأسئلتها وأساليب محاكمتها للوضعية، ولنتائج الحداثة؛ من تجاوز المتن الفلسفي الألماني، وبقى كانط وهيغل أكثر الفلاسفة عرضة للنقد، فقد وفر هذان الفيلسوفان لأصحاب النظرية النقدية انفتاحات متعددة للتفكير والتأمل. فالقول بتجاوز الفلسفة بصيغته الكانطية أو الهيغلية فقد قيمته؛ لأن لحظة تحققها ضاعت، ويرى أدورنو أن الفلسفة حين فشلت بتغيير العالم والتوحد مع الواقع؛ فهي مضطرة إلى انتقاد نفسها دون تساهل، بل وعليها التساؤل في سياق تفكيرها في ذاتها عن الكيفية التي يمكنها أن تبقى ممكنة بعد هذه السقطة التي عرفتتها الفلسفة الهيغلية، وهذا ينطبق على ما قام به كانط حين انتقد العقلانية متسائلاً عن إمكانية تأسيس ميتافيزيقا جديدة. فحرية الفلسفة في عملية تفكيرها في نظره ليست أكثر من القدرة على توفير التعبير عن لا حريتها، فحين تتنازل الفلسفة عن التعبير وعن واجب العرض فإنها تستوعب من طرف العلم وتصبح في خدمته⁵¹.

تنطلق النظرية النقدية من اعتبار أساسي يؤكد على أنه ليس هناك نظرية تدعي امتلاك الحقيقة، وهو ما تطبقه الفلسفة على نفسها، ومن أجل الانفلات من أي انغلاق لا بد من إعادة تنشيط النظرية الجدلية للمجتمع بدون السقوط في موقف تبجيلي عقيم؛ حتى تتمكن الفلسفة من الدفع بالتححرر إلى مداه المأمول، فالنظرية النقدية تنظر إلى الفلسفة باعتبارها تقوم بالدرجة الأولى بوظيفة التحرر⁵²، ومن هنا حاول فلاسفتها القيام بممارسة مغايرة للفلسفة من منطلق إبعادها وانتزاعها من مؤسستين تعملان دوماً على استعبادها وهما الدولة والحزب. وقام مؤسسو النظرية بإنشاء معهد للدراسات الاجتماعية بتمويل خاص لإدراك وفهم ما هو موجود في استقلال عن كل إرادة كليانية. لأن قبول أي شكل سياسي سلطوي لا يمكن أن يترتب عليه إلا فكر ذو شكل سلطوي يعوق التحرر والفعل الفلسفي الحقيقي.

وما تتميز به الفلسفة في النظرية النقدية؛ أن كل فيلسوف فيها قد مارس الفلسفة بأسلوبه الخاص، واستناداً إلى مصادره الفكرية والفلسفية المتميزة وأهدافه، ولكنهم يلتقون كلهم في اعتبار الفلسفة حقلاً للتفكير بالسلب وممارسة لا سلطوية تنصهر وتتداخل في صيرورتها الرغبة في المعرفة والحرية. وسبب نقدهم الفلسفة الهيغلية أن حرية هيغل تتماهى مع الدولة، ومن هنا اعتبروا أن فشل الفلسفة الهيغلية قد أعطى النشاط الفلسفي شرعيته، بمعنى أن هذه النظرية "تدين الجدلين الهيغلي والماركسي باعتبارهما جدلين مكتملين للجدل الإيجابي"⁵³.

إن الفلسفة عند أصحاب النظرية النقدية لا تستهدف اكتساح تفاصيل الهوية، ومن هنا ابتعدت عن فلسفة الذات والوعي ولم تسع إلى بناء نسق فلسفي متكامل، بل عملوا على تفجير نسقي كائناً وهيجلاً من داخلهما، ولا تسعى إلى الاحتواء بسلطة، لأن السلطة تنزع عن الفكر حرية وتحايل على النقد لتستبعده من الواقع، ولا تريد التصالح مع الواقع، لأن النزعة الوضعية الحتمية بكل أنواع السلطات تتخذ من الواقع منطلقاً وهدفها. إن الفلسفة تفكير بالسلب تستمد شرعيتها من راهنية السؤال، ومن فشل الجدال في شكله الهيغلي والماركسي، وتستفيد من علم الاجتماع لصياغة نص متعدد وجمعي يسعى إلى التحرر في كل أبعاده، يقوم به الفرد معتمداً على عقل لا يكف عن مراجعة مكوناته وعن نقد عقلانيته وأشكال حديثه.

3-1-3 جدل العقلانية: نقد العقل الأنواري

يرى هوركهايمر وأدورنو أن الأمر عندهم يتعلق بنقد الفلسفة، والنقد يعني أنهم لا يريدون التضحية بها، بل يركز هذا النقد على التبرم من كل إرادة كليانية، وكل منحى نسقي يتخذ من العقل دعامة له، ونقد الاتجاهات الوضعية التي تكتفي بالمعطيات الواقعية، تنطلق منها وترجع إليها. ولذا فالعقل عندهم هو الحجة النقدية التي تؤسس تصورهم⁵⁴، إذ إن لا عقلانية المجتمع الراهن كانت دائماً موضوع سؤال بفضل الإمكانية السلبية لمجتمع مغاير عقلاني بالفعل. ورغم الالتزام المبدئي بالعقل فهم لا يسلمون بكل نتاجاته، ومن هنا جعلوا من نقد العقل الذي أفرز مؤسسات الحداثة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة منطلقاً جوهرياً في نظرهم للفلسفة الحديثة ولتجليات العقلانية ومظاهر الحداثة.

إن تحرير الإنسان من السحر كما دعا إليه ماكس فيبر⁵⁵ هو نقد العقل بوساطة العقل، وهذا أمر يتعلق بمطلب أنواري، كما حدث في عصر الأنوار؛ حين جعلت من العقل الأداة الجوهرية لممارسة النقد من أجل إخراج الإنسان الأوروبي من حالته السلبية من أجل أن يمارس حريته، ويعبر عن إرادته واتخاذ المبادرة لحياته. فالقرن الثامن عشر كان قرن النقد، المرتبط بحركة دينية فلسفية شاملة بدأت بإنجلترا وفرنسا، وبدأت بتكسير شكل النسق الميتافيزيقي السائد، تحت شعار محاربة اللاهوت والخرافات التي كانت تكبل تفكير الإنسان الأوروبي وتقيده عقله، ونادت بإعطاء الحرية للعقل بالقيام بنقد شامل لكل الأشياء والظواهر والمؤسسات والمفاهيم والسلوكات والأحكام، وبالتالي الخروج بأوروبا من ظلام الجهل والخرافة إلى أنوار العقل والحرية والتقدم. ولم تكتف فلسفة الأنوار بقدرة العقل على اختراق الحدود التي فرضتها عليه الميتافيزيقا واللاهوت، بل استندت إلى مواكبة الحياة وتأملها في مرآة التفكير وفي التلقائية الأصيلة للفكر.

لكن كيف يمكن الدعوة إلى التحرر من خلال النقد في القرن الثامن عشر أن يقبل نتائج الفلسفة الهيغلية القائلة إن العقل يتمثل في النهاية في الدولة⁵⁶، وهل فلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر بوصفها فلسفة تنويرية أسهمت في تحرير الإنسان الغربي حقيقة أم خلقت وسائل جديدة لاستعباده؟

لم يرض أصحاب النظرية النقدية التضحية بالفلسفة أمام هجوم النزعة الوضعية عليها، بل انطلقوا من ضرورة نقدها ومحاسبة مفاهيمها، ولهذا انتقدوا الوضعية أيضاً، وربما في الوقت ذاته عملوا على تفكيك مكونات النسق الفلسفي السائد ولا سيما النسق الهيغلي ليصبح الفعل الفلسفي فعل إنساني يقوم على حرية الفرد ولا يتعارض مع وجوده الجمعي.

ينطلق فلاسفة النظرية النقدية في ما يتعلق بالعقل والعقلانية من ملاحظة جوهرية؛ وهي أن الأنوار التي هدفت إلى تحرير الإنسان انقلبت إلى ضد ما سعت إليه، إذ كرست العبودية القديمة للإنسان، فقد أصبح اليوم تابعا للمجتمع، وبالتالي استمرت علاقات الخضوع والتفاوت الاجتماعي وإقصاء الحرية. وكان من نتائج الأنوار الحديثة أن اختفى العقل حسب رؤية هوركهايمر⁵⁷، أو انسحبه من التفكير السلبي، فرغم سعيها لتحرير الإنسان من الأساطير القديمة فإنها استسلمت لأساطير جديدة، تمثلت في عجز الفكر عن التعبير عن السلب والنقد، ومن هنا

فمن غير الممكن ترجمة إرادة تحرير المستضعفين أو تحرير الناس من مختلف أشكال عبوديتهم، وأصبحت اللغة مجرد أداة في يد قوى السيطرة خدمة لأغراضهم وأهدافهم.

إن العقل ينقسم إلى عقل موضوعي يعمل على رصد نظام العالم داخل نسق له غاية محددة، وبالتالي ينطوي على حقيقة يحملها للعالم والناس والعلاقات، وعقل ذاتي يخدم تطلعات الذات منذ عصر النهضة باعتبار الفرد يسعى إلى الاحتفاظ بذاته، ويوفر لها شروط المحافظة وتحقيق الأهداف الخاصة، وهذا يسمى منطق المنفعة⁵⁸، ومن هنا يفقد العقل دوره كوسيط للمعرفة ليصير مجرد أداة للتغيير حسب ما يقتضيه النظام المهيمن، ويصبح العقل جزءاً من سيرورة الإنتاج ومعايير الصناعة التي بدأت تهيمن في المجتمعات الغربية بقوة، أي أن الفهم يخضع للفعالية، وتتحول اللغة إلى شعار: كل فكر ينظر إليه باعتباره فعلاً، وكل تفكير أطروحة؛ وكل أطروحة تغدو كلمة أمر، تستهدف الهيمنة والسيطرة. وهو ما يسميه النقادون بالعقلانية الأداة أو التقنية⁵⁹، والتي تستهدف فرض سيطرة الإنسان على الطبيعة وتأسيس نظام اجتماعي وسياسي يُخضع الإنسان إلى سيطرته، وهكذا تغدو المعرفة سلطة لا تعرف حدوداً سواء في العبودية أو في مجاملة مالكي وسائل السيطرة، والمعرفة هنا ذات جوهر تقني هدفها استغلال عمل الآخرين وتنشيط رأس المال، ولا يهتمها خلق المفاهيم والصور أو توفير المتعة والسعادة والانسجام بين الناس.

إن العقلانية التقنية هي عقلانية السيطرة، فالعلاقة بين نمو هذه العقلانية وبين عقلانية الإنسان هي علاقة عكسية، فكلما ازدادت تراجع نشاط الإنسان وقدراته، وكلما أتقنت وسائل التقنية نشر الأنوار الخاص بها ازدادت عملية نزع الصفة الإنسانية عن الإنسان، وأصبح كما يراها لوكاتش مشيئة، ومن هنا يصبح العقل مع الأنوار التقنية عقلاً توتاليتارياً، والعقلنة المتطورة كما تفهم وتمارس في الحضارة الغربية تنزع نحو جوهر العقل ذاته⁶⁰.

إن هذا ما يعرف بمفارقة العقلانية الحديثة، والتي تتلخص في أن العقل سعى إلى تحرير الإنسان من الأوهام التي حبس الإنسان داخلها في الماضي، وخلق شروط سعادته ومجال حريته، تحول في هذه الصيرورة إلى أداة لاستعباد الإنسان وضبط تحركه والتحكم بوعيه وجسده سياسياً واجتماعياً، وتتحول عقلانية العقل إلى لاعقلانية لأنه يفرز بربرية جديدة أساسها المعرفة التقنية التي تصير عقلانية سياسية تحد من فردانية الفرد وتضبط سلوكه ورغباته. والسلطة في زمن الحداثة والعقلانية في حاجة دائماً إلى نظام لضبط مفاصل المجتمع وخلق التوازن فيه، والمعرفة هي التي تزود السلطة

بما يحتاجه النظام من عناصر للتحكم في الأشياء والأجساد والعقول. ولهذا يصبح العقل العلمي أو السياسي عقلاً أداتياً، وكل فكر غير غائي لا أهمية له. والعقل الأداتي لا يقبل خروج أي فكر عن النشاط العيني الذي يمكن أن يتكفل به، لأن الخروج عن هذا الفكر خروج عن الواقع، الذي له الكلمة الأخيرة حين تكتفي المعرفة بتكراره⁶¹.

يتحالف العقل والسلطة والنظام والواقع بشكل عضوي محاصرة الفرد والجماعة، وهذا التحالف ترجم في نسقين مختلفي الأسلوب متفقي الهدف، وهما الوضعية والهيغلية، فكلاهما يعبر عن شكل بليد ومشوه للعقل، الأول ما سمي بالعقل الأداتي للعلم والتقنية، والثاني بالعقل الموضوعي للعقلانية. إن منبع رفض أصحاب النظرية النقدية للوضعية والهيغلية، هو شمولية العقل المرتبط بسلطة الدولة الحديثة، والارتباط الساذج بالمعطى الذي لا يساعدان على تحرير الفرد أو تخليصه من الاستلاب الذي رمته الثقافة الجماهيرية الحديثة فيه، لقد أفرز المجتمع الصناعي مظهرًا من مظاهره أسماء ماركوز بالطابع العقلاني للاعقلانية.

برغم التشاؤم الذي طبع منحى هوركهايمر وأدورنو لما أفرزته مظاهر الحداثة في الزمن والمجتمع، والاعتراض على المنهج الوضعي والهيغلية، فإن فلاسفة النظرية النقدية يقولون بعقلانية مفتوحة تستفيد من إيجابيات عقلانية الأنوار وترفض سلبياتها، إن العقل الذي تدعو إليه ليس أداتياً، بل هو عقل خصوصي يريد أن يعطي للتنظيم الاجتماعي حقيقته العقلانية بالفعل، وذلك بأنسنته، وتوفير شروط المتعة والعدل والحرية، إنه ليس شكلياً، بل له مضامين ومهام، وهو يدين بعض الممارسات ويحكمها⁶². إن الأمر يتعلق باستئناف التفكير في مشروع العقلانية دون السقوط في المثالية أو استبعاد نتائج العلوم، شريطة أن تكون عقلانية نسبية تعاند الانزلاق نحو الدوغمائية أو الكليانية، لأن العقل أكثر كليانية من أي نسق كان⁶³.

لقد عمل فلاسفة النظرية النقدية على الكشف عن فظاعات العقلنة في النظام الاجتماعي منطلقين من أرضية العمل العقلاني نفسه، لأن العقلنة مسيرة لتطور البشرية، غير أنها استبعادية أكثر منها تحررية، وأفرزت عالماً صارماً في ضبطه الإداري، يلغي الاختلافات والخصوصيات، وينزع عن الفرد كل دلالة ذات خصوصية له ويجعله نمطاً.

إن نقد العقل الأنواري، وكشف المظاهر البربرية للعقلانية، وإدانة سيطرة الدولة الحديثة، فعل ضروري لإعادة تنشيط السلب في الفكر وتجديد القوة النقدية للفلسفة. ويقوم بهذا الفعل الفرد

الناقد الذي يحتزن تراث الفكر السلبي القادر على الحيلة من هيمنة فلسفة الذات وهي جزء من مهاجمة الميتافيزيقا⁶⁴.

3-1-4 الفرد بين وهم العزلة واستلاب الثقافة

يتفق فلاسفة النظرية النقدية في عملية نقدهم للمجتمع الحديث وللعقلانية التي أسسته؛ على أن أزمة العقل تتجلى بقوة في أزمة الفرد، وهنا تتضح مشكلة الفلسفة التقليدية بخصوص الذات وحرية الفرد، فقد كانت الفلسفة منذ ديكارت تنظر إلى العقل على أنه أداة في متناول الأنا، لقد انقضى هذا التأليه للذات كما يراه هوركهايمر، فلم يعد الأمر ممكنًا؛ لأنه في الوقت الذي يريد العقل الوصول إلى الاكتمال يصير لا عقلانيًا، بل ومتبدلاً⁶⁵.

إن مشكلة العصر الحديث أنها تريد الحفاظ على الذات في الوقت الذي لم يعد هناك ذات، ومن هنا يتعين التساؤل عن موقع الفرد في المجتمع الحديث، واستقصاء طبيعة انشطاره الوجودي الذي ولدته مفعولات الحداثة والعقلانية. لقد اهتم فلاسفة النظرية النقدية بالفرد من كل جانب، وكان اهتمامهم منذ نشأة معهد البحوث الاجتماعية بالعائلة وسلطة الأب وموقع الفرد في المجتمع الحديث، فقد لاحظوا تراجع دور الأب وتفكك العائلة؛ التي كان من نتائجها انهيار مؤسسة العائلة التي يرون أن لها أهمية كبرى في توفير شروط التشخص، والتي تعني الوعي بخصوصية فردانيته باعتباره كائنًا بشريًا ومتعرفًا على هويته الخاصة. فالفرد لا يعني الانعزال الفردي أو ترك الجماعة، لأن الفردانية ترفض في الوقت الذي يتصرف فيه الإنسان لوحده، فلا وجود للفرد المنعزل، لأن الفضائل والقيم الاجتماعية المهمة مثل الاستقلال والعدل وغيرها هي فضائل اجتماعية كلية وفردية في الوقت نفسه، لذلك فالفرد التام التطور؛ هو التجسيد المكتمل للمجتمع التام التطور.

لقد اهتم أصحاب النظرية النقدية كثيرًا أثناء تحليلاتهم لمسألة الفرد في كيفية إنقاذ الخصوصية الفردية أي الطبيعة الداخلية للفرد، من السيطرة المجردة لمفهوم الكلية الهيغلية، وماهية هوسرل ووجودية هايدجر وغيرها من التجريدات الفكرية. وكل فكر يتجاهل الخصوصية الفردية واختلاف الفرد لن يتمكن من فهم التوتر الإنساني فيه، ما أدى بفلاسفة النظرية النقدية إلى الجمع بين ما هو خاص وما هو كوني في الفرد⁶⁶.

ترى النظرية النقدية أن إرادة الأنساق مكون من مكونات النظرية التقليدية، وفي سبيل سعيها للتخلص من توتاليتارية العقل ومن نتائج الحداثة، سعت النظرية إلى تفكيك كل الأنساق، والمتمثلة أساساً في الاكتمال والانغلاق وادعاء الامتلاك التام للحقيقة المطلقة، لذلك أكدت على تجاوز العقلانية المثالية. والحقيقة لا تكمن في الممارسة الجماعية وإنما في تناقضات وثغرات النسق الذي يقوم به الفرد الناقد الذي يفجر أسئلته من جراء المعاناة التي يفرضها عليه النظام الكلياني، ولذا من الضروري خلق مسافة ضرورية إزاء الممارسة حتى يتمكن الفرد من القيام بفعل التفكير الذي يحتاجه الفكر التغييري.

يبحث الفرد لضمان شروط عيشه واستمرار وجوده عن السيطرة على الطبيعة، وهذه السيطرة تتم اعتماداً على قوانين يفرضها على نفسه وعلى الآخرين، وعندما يفرض هذه القوانين ظاناً أنه سيد الطبيعة يصبح عبداً لها. ومادام فلاسفة النظرية النقدية يربطون بقوة بين أزمة العقل وأزمة الفرد في المجتمع الحديث؛ فهم يؤكدون التلازم العضوي بين انحطاط العقل وانحطاط الفرد، ذلك أن تصفية الفرد من طرف الفاشية، ثم من طرف الرأسمالية، أدت بالنظرية إلى القول بأن الدولة الكليانية هي نتاج التنظيم اللاعقلاني للمجتمع الرأسمالي، وبأن الشر الاجتماعي يتماهى مع السلطة⁶⁷.

أما كيف يذوب اختلاف الفرد داخل آليات العقلانية التقنية، وضمن العلاقات العامة التي نسجتها الحداثة، فإن أنصار النظرية النقدية مثل هوركهايمر وماركوز وفروم وبلوخ، يرون؛ وخاصة ماركوز، أنه قد حصل دمج لكل القوى والمصالح داخل النظام؛ والتي كانت سابقاً في حالة احتجاج، كما أن النظام عمل على تنظيم الغرائز والرغبات بشكل منهجي، ما أدى إلى التحكم بقوة السلب لدى الفرد الذي أصبح منسجماً ومتوافقاً مع القوة المهيمنة، وتطور إلى أن إنتاج القمع أصبح يتم دون أدنى مقاومة، ذلك أن الديمقراطية تكرر السيطرة بقوة أكثر من الحكم المطلق. كما يراها ماركوز في الإنسان ذو البعد الواحد⁶⁸.

إن المجتمع الصناعي الديمقراطي يحرم النقد من قاعدته الحقيقية، لأنه يقوي نظاماً بأكمله من السيطرة والتنسيق الذي يدير التقدم ويخلق أشكالاً من الحياة، تبدو أنها تتوافق مع القوى المعارضة. ما ينتج انطباعاً بأن كل احتجاج يغدو بلا جدوى. وكلما غابت عوامل التغيير

الاجتماعي أصبح النقد تجريدياً، بل يصبح عبارة عن صيغ وصفية مخيبة للآمال وإجرائية، كما يراها ماركوز⁶⁹.

لقد خلق المجتمع الصناعي أشكالاً جديدة من المراقبة والضبط، وبالتالي أصبح مجتمع ذا بعد واحد كما يتصوره ماركوز. فالحضارة الصناعية المتقدمة التي تضمن الرفاهية والعقل ونقص الحرية؛ تؤدي إلى تعزيز العقلانية مع إلغاء الفردانية، وذلك بمكنة الأعمال الضرورية اجتماعياً، ولكنها تصبح أكثر قسوة، لأن العقلانية في المجتمع الصناعي تهمش الحرية وتقرم الفرد، وبذا فالحرية مع العقلانية التقنية لم تعد حرية فعلية مادام النظام مؤسساً على الضبط والمراقبة، وأصبح ما يسمى باستقلالية الفرد وهماً وخيالاً⁷⁰.

لقد أنتج النمط الحضاري للمجتمع الصناعي ثقافة خاصة تتخذ أشكالاً ديمقراطية، وتعتبر عن رموزها بصيغ جماهيرية، ولكنها لا تستجيب في عمقها للنزوع الديمقراطي للفرد ولا للمضمون الجماعي للثقافة. وبعد مشاهدة الانحطاط في القيم الفردية داخل المجتمع الصناعي وانسحاب لحق الفرد في الاختلاف داخل النظام الفاشي، وفي تراتبيات النظام السياسي المغلق، حاولوا إعمال العقل لإعادة الاعتبار للفرد وذلك بإعادة قراءة النص الفرويدي على ضوء تحولات المجتمع الصناعي، متسائلين عن دلالات الرغبة والتصعيد الشعوري والجنسي، وعن المعاني الجديدة التي يتخذها الحب والحلم⁷¹. ومن هنا وبسبب الأوضاع الجديدة أصبح استعمال المقولات النفسية ضرورياً لأنها أصبحت مقولات سياسية. ورأوا أن تثوير مفاهيم التحليل النفسي عملية ضرورية لدعم النظرية النقدية نظرياً من أجل الكشف عن الآليات التي تتحكم في جسد الفرد وحرية من الزمن الحديث.

لقد مد الواقع سلطته على مبدأ الرغبة، والعقل تنازل أمام الإرادة اللاعقلانية، وما دام الأمر كذلك فمصير الفرد لا ينفصل عن مصير عقله، وعندما تتماهي السلطة مع المعرفة، تصبح المعرفة أداة للسيطرة على الفرد، ويصبح الفرد بالتالي وسيلة لاستمرار التوازن في النظام وضمان مردودية العمل. وأبرز الأمثلة على ذلك ما يسمى بالثقافة الجماهيرية التي هي وسيلة لمزيد من الإنتاج في يد أصحاب القدرة والسلطة. ويبدو أن الحداثة التقنية لم تكتف بانتزاع المقومات الوجودية للفرد: عقله وحرية ورغبته وميول جسده وقناعاته الذاتية، بل قامت بتوظيف تعبيرات هذه العناصر لكي ينسلخ الفرد أكثر عن ذاته، ويندمج في الاقتصاد الثقافي ذي الامتداد الجماهيري، ومن هنا لا بد

من التماهي مع هذه الثقافة حتى يتاح له الوجود. وهذا يستدعي نزع الطابع الأسطوري عن التقدم العلمي والحدثة، لأنها أصبحت تقوم بدور أيديولوجي بالغ التأثير والقوة، لأنها تركز الانفصال الوجودي بين الفرد وذاته والتواصل المشوه بين الأفراد. وهو ما يقوله فلاسفة النظرية النقدية بأن التلازم العضوي بين العقل والعلم؛ ينتج أدوات تعمل على تسييح حرية الفرد وممارسة السيطرة عليه أكثر من تحريره.⁷²

لقد قام المجتمع الصناعي بتشبيء كل شيء، حسب قيمتها التبادلية، من الدين إلى الفن والفلسفة والتجارة والفكر والقيم، وحتى الحقيقة لا قيمة لها؛ لأن عقلانية الأمر الواقع تتمركز في قيمة التبادل، كما يقول ماركوز⁷³. وقد أدى استثمار الحدثة التقنية لميولات الفرد العميقة في عملية انتاجها لقيمة التبادل إلى ما يسميه ماركوز بالوعي السعيد، الذي يؤمن بأن الواقعي عقلي، وبأن النظام يلبي حاجات الإنسان، الأمر الذي أدى إلى بروز امتثالية جديدة تعبر عن نفسها من خلال السلوك الاجتماعي المتأثر بالعقلانية التكنولوجية. وهذا لا يساعد على تحرر الفرد لأنه يوهمه بالحرية والديمقراطية في الوقت الذي يدمجه في آليات لا تنتج إلا الشبيه والتنميط. ولذا فلغة التواصل المهيمنة تسعى إلى التوحيد وتولي الفكر الإيجابي وتبرم من كل المفاهيم النقدية.

3-1-5 بين الدمج والأفق الجمالية

من خلال سعي فلاسفة النظرية النقدية للقيام بممارساتهم النقدية، تأثروا بالتراث النقدي السابق وخاصة الفلسفة الألمانية، فقد تأثروا بشوبنهاور وماركس ومن قبلهم كانط، ولذا فهناك من يرى أن النظرية النقدية عبارة عن نظرية توفيقية تجمع في الأساس كانط وماركس وغيرهم، وفي الوقت ذاته استلهمت بعض مفاهيم التحليل النفسي لفرويد للكشف عن الآليات الواعية واللاواعية في الحضارة الحديثة، وفي البناء الفكري والنفسي للإنسان المعاصر، وعمل ماركوز وفروم على إدماج الفهم الفرويدي للذات والحضارة في سياق نقدهم للأسس القمعية للثقافة الحديثة⁷⁴.

إن جدل الحضارة عبارة عن تبادل متوتر بين السيطرة والتحرر، والحضارة التقنية لا تساعد الفرد على التفتح والتحرر، بل تعمل على استلابه من خلال قمع رغباته، لذا فالفرد أمام خيار واضح؛ إما أن ينخرط في آليات الثقافة السائدة ويتنازل عن إنسانيته، أو أن ينشد حضارة لا قمعية تسمح له بتحقيق حريته، وهنا فإن الفرد لا يختار بين نطتين، وإنما بين القيمة وانعدامها، أي بين الإيروس التحرري واللوغوس المسيطر⁷⁵. ولذا فالحال يتعلق هنا بتصور يوتوبيا جديدة، ذلك

أن ترف العلاقة بين حضارة القمع والحضارة اللاقمعية وانسداد أفق النقد بحكم أن الطبقة التي كان من المفترض أن تحققه؛ قد ذابت في إغراءات النظام، وأمام هذا الواقع لم يعد أمام النظرية النقدية إلا الارتقاء في مجالات التخيل والاعتماد على مردودية اليوتوبيا، وهكذا بين الدمج وآفاق اليوتوبيا اختار فلاسفة النقد أن يسلبوا العالم على صعيد التخيل، لأن الرفض لم يعد له من سبيل إلا اليوتوبيا، ولكنها حلم لا يشبه الأحلام العادية، ولكنه حلم يكسر الحواجز ويغزو الإنسان سيد تاريخه لأنه قادر على خلقه، لأنه أساساً قادر على التخيل. واليوتوبيا هنا شكل من أشكال الحرية والفكر؛ لأن الإنسان داخلها قادر على معاندة التاريخ الذي تفرضه عليه الحداثة التقنية، وبالتالي ينتصر على الضرورة القاسية للتاريخ كما صنعه العقل الأنواري. إن اليوتوبيا حلم يتيح فتح بُعد جديد في الواقع، إنه حلم سيادة إيروس بريء داخل عالم بلا حواجز، يحقق الحاجات والرغبات دون منع أو تضيق، وهذا أهم سمات المجتمع اللاقمعي.

إن لجوء النظرية النقدية إلى اليوتوبيا قد يكون تعبيراً عن عجز النظرية وضعفها وانسداد كل مجالات النقد الناجح أمامها، ومن هنا لم يبق أمام النظرية إلا الارتقاء في أحضان المجال الجمالي، ويتحول النقد من إجراء لتأسيس نظرية نقدية للمجتمع إلى احتجاج من النوع الإستاطيقي، الذي يعني رفض الفن لابتدال الثقافة وانحطاط الفرد، إنه رفض جذري ذو أبعاد جمالية، وفيه نوع من التحقق الرمزي للحرية. وإن لجوء النظرية للفن باعتباره عالم رمزي يساعد على التحرر من سلطة العقل، فالفن يتضمن عقلانية السلب، والمخيلة ترفض الالتزام بمحدود ما يفرضه الواقع، وهذا ما يعطي للرفض الجمالي بعده النقدي، فالفلسفة تتوحد مع الفن حينما تستطيع التعبير عن قوة الشغف في اللغة، وتحوله من خلالها إلى مجال التجربة والذاكرة⁷⁶.

يبدو أن النظرية النقدية لم تتمكن من الاندماج في إيقاعات تحولات الحداثة في أبعادها الإيجابية بسبب من قوة التغيرات وسرعتها بعد الحرب العالمية الأولى، ولهذا سادت النظرة المتشائمة عند الجيل الأول من مفكري هذه النظرية، وإن تم تجاوزه فيما بعد، وخاصة مع الجيل الثاني مثل هابرماس الذي ابتعد عن هذا التشاؤم واختط لنفسه موقفاً أكثر إيجابية في فهم الواقع ودور الفلسفة من أجل تقديم نظرية نقدية تستجيب لمقولاتها في تحرير المجتمع المعاصر.

4- الخاتمة

شكلت النظرية النقدية محاولة للوقوف على الدور الذي ينبغي للفلسفة أن تقوم به بعد الهيمنة الكبرى للعقل الأنواري المستند إلى نتائج العلوم الطبيعية، والذي أنتج قوة صناعية مارست الهيمنة على الإنسان وحولته إلى "شيء"، وساعدت على مصادرة حريته رغم الانفتاح الكبير الذي مارسه العقل، ولكن ضمن وظيفة جديدة له، وقد أسهمت الظروف السياسية والصناعية المتغيرة والمنهجيات الفكرية المتنوعة إلى مواقف مضادة للإنسان في المرحلة الأولى من القرن العشرين، الذي شهد اجتهادات متنوعة فلسفياً للتوفيق بين حرية الإنسان وعقلنته وتشبيحه، وبين الهيمنة العلمية وتقانتها الصناعية، وبين المنهجيات العلمية بادية الهيمنة والسيطرة على المجتمعات والأفراد، والذي قاد إلى إحساس الإنسان بأنه لم يعد سيد ذاته ومصيره، جاءت النظرية النقدية ضمن وظيفة مدرسة فرانكفورت لنقد العلاقة بين المعرفة والعلم والإنسان ومحاولة إعادة الإنسان إلى موقعه الصحيح ووظيفته الطبيعية.

سعت النظرية النقدية عبر اختصاصاتها المتعددة أن تقوم بهذه المهمة، وكان في طليعة المعارف والمناهج الموقف الفلسفي الساعي إلى الفهم والفعل، فحاولت أن تقوم بدور البوتقة التي تربط ما بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ومنتجاتها في محاولة لأداء دور جديد في خضم التغيرات الكبرى التي أملت بالمجتمعات الإنسانية وخاصة الأوروبية التي عصفت بها حرب عالمية كبرى. فأدركت أن المشكلة في تغيير دور الإنسان وإزاحته عن واقعه الطبيعي، لذا أسهمت في فتح المجال أمام كل ما يمكن أن يؤدي إلى نجاح هذه المهمة في تحرير الإنسان من الأنساق العلمية والفكرية عبر إعادة الإنسان لدوره في سعيه لتحرير ذاته مما كبلها من أنساق وأفكار وممارسات عبر نقد كل ما أسهم في وصوله إلى الحالة التي يعانها.

لقد تم نقد الأنساق الفلسفية والعلمية التي أفضت بالإنسان إلى الحالة التي وصل إليها من قبل العديد من المفكرين في محاولة لتحليل الأسباب للوصول إلى تشخيص للنتائج المهيمنة في الواقع، وتم تبني حقول معرفية متنوعة تستهدف فهم المتغيرات والظروف والشروط المهيمنة، بل وفهم الإنسان نفسه في ظروفه المستجدة لإعادته إلى حالته الطبيعية من الحرية والعقلانية غير الأدوات التي يتم استغلالها وتوظيفها ضد الإنسان ذاته. سعيًا لتحريره من السلطة أيًا كان مصدرها وطبيعتها. فتبنت النقد القائم في الجوهر على العقل الحر من إفسار التشبيء والأداتية التي تحول من وسيلة تحرر

الإنسان فيما مضى إلى وسيلة من وسائل القمع في المرحلة الأخيرة بتأثير الحركة الصناعية والليبرالية وجوهرها العلم الأداتي.

كانت الفلسفة دومًا محاولة للفهم والتشخيص، وهو ما سعت النظرية النقدية إلى إعادة الفلسفة إلى وظيفتها التي نشأت بها، الوعي المتوسل بالتساؤل والبحث الحر في سبيل الوصول إلى الحقيقة التي تساعد الإنسان لتحقيق إنسانيته القائمة على الوعي بذاته وبمصلحه، والمبنية على عقله الحر بديلاً عن التوجيه النفعي الذي شوه فعله ودوره والنتائج التي يسعى إليها. وهو ما عجز عنه مفكرو المرحلة الأولى من تحقيقه، ما يعني ضرورة إعادة النظر دومًا في قراءة الواقع بكل مكوناته للتغلب على الإحباطات، وهو أحد الدروس المهمة مما أصاب الرعيل الأول لأنصار النظرية النقدية.

إننا في هذه المرحلة العربية المعاصرة بحاجة إلى إعادة النظر في كثير من مسلماتنا الفكرية والسلوكية المتوارثة، لأن الوجود بكل محمولاته يفرض علينا السعي الحثيث إلى البحث عن كل ما من شأنه المساعدة على تشخيص واقعنا بكل جوانبه للسعي إلى الفهم والتحليل ومن ثم النقد؛ للوصول إلى حلول ما نعانى من تبعية وفقدان للهوية، وتبقى الفلسفة في تساؤلاتها وأهدافها ومنهجيتها وانفتاحها على الآخر أداة مهمة لفهم ذاتنا ومعرفة مساحة انفتاحنا على الآخر، وتعاملنا معه بصورة عقلانية، ما قد يساعدنا على الوصول إلى الانعتاق من حالة السبات التي نعانىها للبحث عن وسائل النهضة العربية الجديدة في هذا العالم سريع التغير والتطور، إذ بات من الضروري إيجاد معاييرنا ومناهجنا الخاصة النابعة من عقيدتنا المليئة بكل القيم الحافظة لإنسانيتنا وفرديتنا ودورنا الرسالي والهدف من وجودنا، والانفتاح على كل منتجات الفكر الإنساني؛ دون الذوبان أو الانبهار بالآخر وثقافته ومناهجه.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم يحيوي، "النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت الإعلامية: نشأتها، وروادها: خصائصها ومنطلقاتها الفكرية"، مجلة رؤى للدراسات المعرفية والحضارية، (1/8)، (2022).

2. إريك فروم، مفهوم الإنسان عند فروم، ترجمة محمد سيد رصاص (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1998).

3. إريش فروم، ما وراء الأوهام، ترجمة صلاح حاتم (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1994)،
 4. ألن هاو، النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت، ترجمة تائر ديب (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2020).
 5. غونار اسكريبك ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة د. حيدر حاج إسماعيل (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2012).
 6. إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، ومراجعة محمد عصفور (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999).
 7. توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ترجمة، سعد هجرس (طرابلس: دار أويا، 1998).
 8. توم سوريل: ديكارت، ترجمة أحمد محمد الروبي (المملكة المتحدة: مؤسسة هندواي، 2104).
 9. حامد الدبابسة، "يورغن هابرماس والنظرية النقدية: الفلسفة والبحث عن الاعتناق والحرية"، في مجلة النجاح للأبحاث، المجلد 37(1)، 2023، ص 149-172 في الرابط التالي:
- An-Najah journals | Jurgen Habermas and the critical theory: philosophy and freedom
10. حسام الدين فياض، "في جدلية اللوغوس والإيروس في الحضارة الغربية المعاصرة: قراءة في نظرية هيربرت ماركيز عن الحب والحضارة"، في موقع التنويري: <https://altanweeri.net/10579>
 11. عبدالرحمن بدوي، إمانويل كنت (الكويت: وكالة المطبوعات، 1977).
 12. فيل سليتر، مدرسة فرانكفورت، نشأتها ومغزاها: وجهة نظر ماركسية، ط2 (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004).

13. سامية الهواشي، "من نقد الخرافة إلى نقد الاغتراب: فيورباخ وماركس أمام "ما هو التنوير" لكانط" ضمن كتاب: فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005).
14. سيغموند فرويد، مختصر التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1986)، ط2.
15. عبدالغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، تمهيد وتعقيب نقدي (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2018).
16. عطيات أبو السعود، "تطور العقل البشري من كانط إلى هابرماس" ضمن كتاب: فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005).
17. فريدريك نيتشه، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قبيسي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1971).
18. كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث (الجزائر: دار الاختلاف، 2010).
19. ماكس هوركهايمر، ثيودور ف. أدورنو، جدل التنوير: شذرات فلسفية، ترجمة د. جورج كتوره (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006).
20. _____، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية، ترجمة محمد علي اليوسفي (بيروت: دار التنوير ودار الفارابي، 2006).
21. _____، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، ترجمة مصطفى الناي (الدار البيضاء: عيون المقالات، 1990).
22. هربرت ماركيز، العقل والثورة: هيجل ونشأة النظرية النقدية، ترجمة فؤاد زكريا (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2024).
23. هربارت ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت: دار الآداب، 1988)، ط3.

24. يورغن هابرماس، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، ترجمة نظير جاهل (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1995).

25. _____، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر (كولونيا: منشورات الجمل، 2001).

26. _____، بعد ماركس، ترجمة محمد ميلاد (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2002).

27. Berterand Russell, *The Problems of Philosophy*, London: Williams & Norgate

28. Berterand Russell, *History of Western Philosophy*, London: Unwin Paperbacks, 1982.

29. Liaquat Ahmed, (2009). *Lords of finance: The bankers who broke the world*. USA: Penguin books.

30. W. Ross Payne, *Introduction to Philosophy*, 2023K at: Deed - Attribution-NonCommercial 4.0 International - Creative Commons.

الهوامش

¹ إريش فروم، ما وراء الأوهام، ترجمة صلاح حاتم (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1994)، ص 41-42.

² غونار اسكريبك، ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة د. حيدر حاج إسماعيل (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2012)، ص 506، 573.

³ كمال بومني، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث (الجزائر: دار الاختلاف، 2010)، ص 25.

⁴ اسكريبك، وغيلجي، مرجع سابق، ص 674، 704-707، 732-738.

⁵ ماكس هوركهايمر، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، ترجمة مصطفى الناي (الدار البيضاء: عيون المقالات، 1990).

⁶ بومني، مرجع سابق، ص 11، 37، 103، 115.

⁷ سكريبك وغيلجي، مرجع سابق، ص 435-450 و 479-510.

⁸ عبدالرحمن بدوي، إمانويل كنت (الكويت: وكالة المطبوعات، 1977)، ص 162-179.

⁹ Berterand Russell, *The Problems of Philosophy*, London: Williams & Norgate, pp. 220-236.

¹⁰ Liaquat Ahmed, (2009). *Lords of finance: The bankers who broke the world*. USA: Penguin books.

¹¹ W. Ross Payne, Introduction to Philosophy, (2023), 2023K at: Deed - Attribution-NonCommercial 4.0 International - Creative Commons, Access at: December 2, 2025.

¹² فيل سليتر، مدرسة فرانكفورت، نشأتها ومغزاها: وجهة نظر ماركسية، ط2 (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص 25.

¹³ أن هاو، النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت، ترجمة ثائر ديب (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2020)، ص43.

¹⁴ إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، ومراجعة محمد عصفور (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999)، ص298؛ وسامية الهواشي، "من نقد الخرافة إلى نقد الاغتراب: فيورباخ وماركس أمام "ما هو التنوير" لكانط" ضمن كتاب: فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005)، ص75-81.

¹⁵ كريب، مرجع سابق، ص299.

¹⁶ بومنيير، مرجع سابق، ص28-29.

¹⁷ عطيات أبو السعود، "تطور العقل البشري من كانط إلى هابرماس" ضمن كتاب: فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005)، ص49.

¹⁸ كريب، مرجع سابق، ص311.

¹⁹ كمال بومنيير، مرجع سابق، ص27-32.

²⁰ كريب، مرجع سابق، ص297.

²¹ توم سوريل: ديكارت، ترجمة أحمد محمد الروبي (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي، 2104)، ص68-69.

²² يورغن هابرماس، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، ترجمة نظير جاهل (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1995)، ص22-23.

²³ بدوي، مرجع سابق.

²⁴ Berterand Russell, (1982), *History of Western Philosophy*, London: Unwin Paperbacks, pp. 685.

²⁵ سكيريك وغيلجي، مرجع سابق، ص644.

²⁶ ماركوز، العقل الثوري: هيجل ونشأة النظرية النقدية، ترجمة فؤاد زكريا، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي، 2014، ص305-307.

²⁷ سكيريك وغيلجي، مرجع سابق، ص657-658.

²⁸ كريب، مرجع سابق، ص346.

- ²⁹ توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ترجمة، سعد هجرس (طرابلس: دار أوبا، 1998)، ص 177، وكريب، مرجع سابق، ص 309-311.
- ³⁰ كريب، مرجع سابق، ص 315-318.
- ³¹ سكريبك وغيلجي، مرجع سابق، ص 962.
- ³² يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر (كولونيا: منشورات الجمل، 2001)، ص 317 و 372.
- ³³ كريب، مرجع سابق، ص 347.
- ³⁴ المرجع نفسه، ص 349.
- ³⁵ المرجع نفسه، ص 347.
- ³⁶ المرجع نفسه، ص 319.
- ³⁷ المرجع نفسه، ص 328-329.
- ³⁸ المرجع نفسه، ص 298-299.
- ³⁹ انظر: إبراهيم يحيوي، "النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت الإعلامية: نشأتها، وروادها: خصائصها ومنطلقاتها الفكرية"، مجلة رؤى للدراسات المعرفية والحضارية، (1/8)، (2022)، ص 176-183.
- ⁴⁰ المرجع نفسه، ص 188.
- ⁴¹ كريب، مرجع سابق، ص 312.
- ⁴² المرجع نفسه، ص 313.
- ⁴³ المرجع نفسه، ص 314.
- ⁴⁴ يورغن هابرماس، بعد ماركس، ترجمة محمد ميلاد (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2002)، ص 228.
- ⁴⁵ هربارت ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرايشي (بيروت: دار الآداب، 1988)، ط 3، ص 221-222.
- ⁴⁶ إريك فروم، مفهوم الإنسان عند فروم، ترجمة محمد سيد رصاص، (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1998)، ص 63-65.
- ⁴⁷ هوركهايمر، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، مصدر سابق، ص 61-62.
- ⁴⁸ انظر: سكريبك وغيلجي، مرجع سابق، ص 934-935.
- ⁴⁹ المرجع السابق، ص 822.
- ⁵⁰ ماكس هوركهايمر، ثيودور ف. أدورنو، جدل التنوير: شذرات فلسفية، ترجمة د. جورج كنوره (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006)، ص 284.
- ⁵¹ هاو، مرجع سابق، ص 107.
- ⁵² انظر: حامد الدبابة، "يورغن هابرماس والنظرية النقدية: الفلسفة والبحث عن الانعتاق والحرية"، في مجلة النجاح للأبحاث، المجلد 37(1)، 2023، ص 149-172 في الرابط التالي: [An-Najah journals | Jurgen Habermas and the critical theory: philosophy and freedom](https://An-Najah-journals.com/Jurgen-Habermas-and-the-critical-theory-philosophy-and-freedom)
- ⁵³ هوركهايمر، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، مصدر سابق، ص 11-15 و 49-50.
- ⁵⁴ المصدر نفسه، ص 49-53.

- 55 كريب، مرجع سابق، ص 311.
- 56 سكريبك وغيلجي، مرجع سابق، ص 660.
- 57 هاو، مرجع سابق، ص 142.
- 58 سكريبك وغيلجي، المرجع نفسه، ص 555.
- 59 عبدالغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، تمهيد وتعقيب نقدي (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي، 2018)، ص 21.
- 60 بوتومور، مرجع سابق، ص 181.
- 61 كريب، مرجع سابق، ص 315.
- 62 ماركيز، العقل والثورة، مصدر سابق، ص 70.
- 63 هوركهايمر وأدورنو، مصدر سابق، ص 293.
- 64 ماكس هوركهايمر، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية، ترجمة محمد علي اليوسفي (بيروت: دار التنوير ودار الفارابي، 2006)، ص 95.
- 65 هوركهايمر وأدورنو، مصدر سابق، ص 287-286.
- 66 كريب، مرجع سابق، ص 300.
- 67 فريدريك نيتشه، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قبسي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1971)، ص 23 و 66.
- 68 ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، ص 237-238.
- 69 المصدر نفسه، ص 239-240.
- 70 المصدر نفسه، ص 38.
- 71 سيغموند فرويد، مختصر التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1986)، ط 2، ص 32-34 و 53-54.
- 72 هوركهايمر وأدورنو، مصدر سابق، ص 142 و 250؛ ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، ص 181.
- 73 ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، ص 182.
- 74 سليتر، مرجع سابق، ص 216.
- 75 حسام الدين فياض، "في جدلية اللوغوس والإيروس في الحضارة الغربية المعاصرة: قراءة في نظرية هيربرت ماركيز عن الحب والحضارة"، في موقع التنوير: <https://altanweeri.net/10579>. تاريخ الدخول: 2025/12/25.
- 76 سليتر، مرجع سابق، ص 190.

